



The Institute of Ismaili Studies

العقل والدين، بين الشرق والغرب
الدكتور رضا شاه كاظمي

موجز

إن العلاقة بين العقل والدين هي بالأساس علاقة متناغمة في سياق الإسلام. رغم الإختلافات حول موضع العقل بالنسبة للدين إلا أنه لا يمكن للمرء أن يرى هذين العنصرين متضادين متخالفين بأي أسلوب متطرف أو مغالي. يمكن مقابلة هذا مع الوضع الفلسفي الذي ساد في الغرب منذ حركة التنوير في القرن الثامن عشر. اعتُبر الدين بأنه متناقض من ناحية كبيرة فيما يخص الممارسة الحرة والتعقل وذلك كنتيجة لعلمنة الأفكار والثقافة في المجتمع الغربي. يعالج الكاتب في هذه المقالة هذا الموضوع متولاً الإنتقادات التي وجهها مفكرون من الغرب نفسه، وبالإعتماد على منظورات فلاسفة مسلمين معينين لم يكن عندهم تناقض بين العقل والدين.

كلمات رئيسية

العقل، الدين، العلمنة، الفلسفة، التنوير، الدراسات الدينية، الرمزية، العقيدة، العلم، التاريخ الفكري، التاريخ، المسيحية، الكاثوليكية، الإسلام، اسحق نيوتن، غاليليو، كوبرنيكوس، مايستر إيكهارت.

أنا أتحدث عن المواقف في تراثنا، في تراثنا السياسي، في تراثنا القانوني، وفي تراثنا العمومي، هذه المواقف التي تقترح بأن الدين شيء غير هام..... شيء يجب تركه جانباً عندما تدخل النقاش العمومي الجدي أو ساحة العمل، شيء عليك أن تكون مستعداً عن سلخه عن نفسك إذا كنت تريد أن يُنظر لك بشكل جدي. ستيفان كارتر، "ثقافة عدم الإيمان: كيف يهشم القانون الأمريكي والسياسة الإلتزام الديني" (نيويورك، ١٩٩٣).

تنظير الدور الديني في المجتمع المعاصر

يرثي البروفسور ستيفان كارتر، أستاذ القانون في جامعة ييل، في أشهر كتبه تبلور ثقافة في أمريكا لم يعد الدين محترماً فيها من الناحية العقلية. بالطبع فهو ليس الوحيد في هذا الموقف. إن هنالك، وسيظل دائماً هنالك، من يعارض فكرة علمنة الفكر والمجتمع، ولقد انتقدوا الطريقة التي أضحت من خلالها المادية والدينية الأشكال الجديدة للطغيان الثقافي، لكن ما يجدر الإشارة إليه الآن بأن أصوات العقال من المؤسسة الفكرية في الغرب تدعو لإعادة تقييم بعض الفرضيات المركزية التي تكمن وراء المجتمع الغربي الحديث، وخاصة المبادئ والأبعاد الحقيقية أو حدود العلمانية. بما معناه بأن أسئلة تطرح عن المدى الذي يجب أن يسمح للعلمانية أن تصل له، وفيما إذا لم يكن الآن هو الوقت المناسب لإنهاء علمنة بعض المجالات. يمكن تسمية إنهاء العلمنة بإعادة التقديس، أو كما يسميها البروفسور جون كين، أستاذ العلوم السياسية في جامعة ويستمنستر في لندن وأحد أبرز المنظرين للمجتمع المدني، "بالعودة للمقدس".

يشير كارتر للعديد من العوامل التي يشعر بأنها المسؤولة عن التقليل من الأهمية الفكرية والثقافية للدين. دعنا نذكر أهم ثلاثة منها: الأسطورة بأن رجال الدين هم عبارة عن غرباء من عصر ما قبل التنوير وهذا غير عقلاني وطفولي، والأسطورة بأن العقيدة الدينية تقود إلى فتنة سياسية، والإفتراض بأن الدين غير مفيد وليس له صلة في العصر الحالي وذلك لتعذر الوصول له من خلال العلم الحديث.

إذا أخذنا فكرة التحريض السياسي أولاً، فإنه لمن الواضح أن الكثيرين يخشون أن سلطة الدولة قد تتهدد من قبل أي دين يحاول أن يُظهر نفسه في الساحة السياسية. ينبع هذا الخوف المتوقع من التجربة الخاصة مر بها الغرب. إن مبدأ فصل الدين عن الدولة، وهو مبدأ العقيدة السياسية العلمانية، كان قد ظهر كحاجة سياسية في سياق تاريخي سادت فيها الحروب والإضطهادات الدينية. لا يرغب كارتر وآخرين مثله بأن تتقلب أوجه العلمانية هذه، وإن القضية بالنسبة لهم هي عدم السماح للبراغماتية السياسية أن توسع العلمنة لتشمل الفكر والثقافة، وأن تحجب الإيمان كعنصر للهوية على الصعيدين الشخصي والإجتماعي.

جذور الصراع بين الدين والعلم

بالنسبة للإقتراض بأن الأشخاص المتدينين هم 'حالات شاذة تعود لعصر ما قبل التنوير'، يجب على المرء أن يدرك بأن معارضة التنوير لم تكن تجاه الدين بالتحديد وإنما تجاه السلطة الواحدة للدين المؤطر في مؤسسات، وهي الكنيسة وعقائدها. لقد نُظر إلى كنيسة الروم الكاثوليك في الصالونات البرجوازية في باريس في القرن الثامن عشر على أنها أقدر على حرق السحرة والكفرة منها على هداية الروح للخلاص.

لا يمكننا فهم المناقشات اللاذعة لفولتير وديدروت وغيرهم من المفكرين ضد الدين إلا من خلال العامل الثالث الذي ذكر في الأعلى: وهو الإقتراض بأن الدين يتعارض بالضرورة مع العقل والعلم. كيف ولماذا ظهر مثل هذا الإقتراض؟ إن هذه القضية لشائكة بشكل كبير جداً وعصية على أي تفسير أحادي الجانب. غير أنه هنالك أحداث هامة يمكن أن تساعد في إلقاء الضوء على سلسلة الأسباب التاريخية المسببة والمؤثرة بالميول الفكرية والثقافية وفقاً 'لروح العصر' والتي أدت للقضية التي نناقشها. أحد هذه الأحداث والذي شكل نقطة تحول هامة في العملية التي أدت لأن يغدو هذا الإقتراض بديهياً في العقلية الغربية كان محاكمة عالم الفضاء غاليليو (توفي ١٦٤٢).

العلم كوجهة نظر مميزة

إن رفض الكنيسة تأكيد غاليليو لنظرية كوبرنيكوس على أن الأرض تدور حول الشمس والتي استدلت عليها من خلال الملاحظات التجريبية كان لأسباب دينية وليس على أرضية علمية. أخبر غاليليو بأن هذا الميول شرك لأنه خالف كلمات الإنجيل. قال غاليليو في دفاعه بأن 'الإنجيل يعلمنا كيف نصل للسماء ولا يعلمنا كيف تتحرك السماء'. لكن حكم محاكم التفتيش كان قاسياً: 'اشتبه بشدة بأنه قد ارتكب بدعة'، وهي بأنه 'قد آمن بعقيدة مزيفة وتتعارض مع الكتاب المقدس، بأن الشمس هي مركز الكون وبأنها لا تتحرك من الشرق إلى الغرب وبأن الأرض تتحرك، وبأنها ليست مركز الكون'. قيل له بأن عقوبة الإيمان ببدعة مركزية الشمس مستعدة لنكران ولعن ومقت خطاه المتمثل بالإيمان ببدعة مركزية الشمس.

وهكذا نرى بأن غاليليو كان قد أُجبر على التخلي عن 'البدعة' التي كان يدرك حقيقة بأنها حقيقة مثبتة تجريبياً. إن هذا التخلي الإجباري، والذي كان سخيلاً بقدر ما كان مدمراً للثقة، قد انعكس ضد كنيسة الروم الكاثوليك موجهاً ضربة قاضية للسلطة الفكرية لعقيدة الكنيسة، هذه الضربة التي لا تزال آثارها مستمرة حتى اليوم. منذ فترة غاليليو وحتى الوقت الحاضر أصبح النظر إلى الدين والعقل على أنهما، وبشكل متزايد، طريقين غير متوافقين للنظر إلى العالم. تلا ذلك الثورة العلمية في القرن الثامن عشر والتي جسدها العالم الإنجليزي العظيم اسحق نيوتن (توفي عام ١٧٢٧)، نُظر إلى هذه الثورة من قبل الأغلبية الساحقة من المفكرين على أنها نتيجة العقل الطبيعي والذي حرر نفسه من أغلال الدين والتي لم تكن طبيعية أو عقلانية. يصعب علينا اليوم الإحساس بالإثارة التي نجمت عن هذه الثورة. عبّر الشاعر ألكساندر بوب (توفي عام ١٧٤٤) عن روح العصر بشكل رائع في عمله 'مقالة عن الإنسان'، والتي نشرت عام ١٧٣٣. أولاً، يعبر عن عدم تحمله لعقيدة الكنيسة، فقد كتب:

إن أشكال العقيدة تمكن الغلاة عديمي الرحمة أن يقاتلوا
لا يمكن أن يكون خاطئاً من كانت حياته صحيحة.

ثانياً، فيما يخص عجائب العلم واكتشاف قوانين الطبيعة التي كانت لا تزال مخفية، فإنه يعلن بأسلوب مبالغ فيه:

ترقد الطبيعة وقوانين الطبيعة مختفية في أعماق عتمة الليل
قال الله: ليكن نيوتن، وعندها عمّ النور.

العلمانية والعلمنة

الآن، فإن من المهم إدراك حقيقة أن ظهور العلمانية كعقيدة سياسية كان قد ظهر نتيجة لتجاوز الكنيسة حدودها السياسية والاجتماعية والمؤسسية والذي كان من المهم تحجيمه ورده لحدوده الصحيحة، إضافة لذلك، من المهم النظر للعلاقة بين إزالة القدسية أو تحجيم الدين نفسه من جهة وبين علمنة الفكر والثقافة من جهة أخرى. كما يشير [هنري كوربن](#) بأن الثورة الكوبرنيكوسية في علم الكون كانت قد افترضت مسبقاً ثورة كوبرنيكوسية في علم اللاهوت. فالسماء في الأعلى لم تعد رمزاً لسعي الإنسان نحو التنوير: فالكواكب الدوارة بذلك كانت أجساماً عديمة الحياة تعطي دلائل زمنية وليست صوراً للأبدية. يمكننا إذاً أن ندرك علمنة الكون- النظر للطبيعة بهذا الأسلوب مكن من إدراك وجود العديد من الحقائق التجريبية التي تحتاج للتحليل والكشف عنها لصالح الإنسان، بدلاً من

النظر إليها على أنها رموز وإشارات من أجل التفكير بها- يمكن للمرء أن ينظر لهذا الأسلوب من العلمنة على أنه تعبير عن حملة لاحقة لعلمنة للدين نفسه، كما في الإنتقاص من الإدراك الروحي والتشيع الصوفي والعمق الباطني، باختصار، تأكل بعد العمق الديني فقط من خلال أساليب تفكير أفقية.

يمكننا أن نفهم الرابط بين الإختزالية الروحية في الدين وبين علمنة الثقافة الفكرية ضمن المجتمع ككل من خلال النظر لأحد أهم ممثلي التقليد الباطني في المسيحية، مايستر إيكهارت. هذا الصوفي الألماني العظيم من القرن الرابع عشر كان قد اصطدم مع السلطة في ذلك الوقت وذلك باتهامه 'بالإقتراب من ارتكاب' البدعة. نرى هنا تحذيراً لما حصل بعد قرنين من الزمن من خلال محاكمة غاليليو. رغم الفرق الكبير بين الصوفي والعالم كان لمصير هذين الشخصين قاسم مشترك: واجه كلاهما الكنيسة التي كانت قد تحجرت وأصبحت إيديولوجية وعقائدية، الكنيسة التي أصبحت، أهم من كل شيء، غير حساسة 'للمزجة'. لم تستطع السلطات الكنسية الحياد عن المعنى الحرفي للإنجيل: فبالنسبة لهم لم تكن قصة الخلق مجرد وحي إلهي فقط وإنما حقيقة علمية أيضاً. لذلك كان على 'إكتشافات' غاليليو أن تكون خاطئة بكل بساطة، وقوة هذا الافتراض تتناسب مع عدم القدرة على تفسير النصوص الدينية روحياً. وإذا استعرنا مصطلحاً من علم الكلام الإسلامي فإن الكنيسة كانت قد فقدت القدرة على 'التأويل'.

العلمانية كرد فعل على كنيسة الروم الكاثوليك

ولذلك سيطرت العلمانية على تيارات الفلسفة والفكر عموماً في الغرب، وذلك كرد فعل على نوع خاص من الدين والسلطة الدينية، وهو الكنيسة التي ارتكبت خطأ قاتلاً بالتركيز على دنيويتها، الكنيسة التي أصبحت دولة بحد ذاتها، بتسلسل هرمي للمناصب ومصالحها الخاصة، الكنيسة التي انشغلت بأشع أنواع محاكم التفتيش والإضطهاد، الكنيسة التي أظهر الإصلاح الديني دورها في سلسلة من الحروب الدينية البغيضة والفتن الطائفية، وربما وأهم من ذلك كله من وجهة نظر التاريخ الفكري، الكنيسة التي همشت عقيدتها اللاهوتية الجوانب الروحية والباطنية من العقيدة الدينية، وبالتالي أصبحت ضعيفة بشكل كبير أمام الإكتشافات العلمية. من وجهة نظري أرى أن هذه هي الأسباب الرئيسية وراء إظهار الدين متناقضاً مع العقل، الأمر الذي أدى إلى معاداة حركة التنوير الراديكالية للميول المسيحية، هذه الحركة التي كانت بدورها جزءاً أساسياً في التراث الفلسفي والعلماني في الفكر الغربي، والذي تبدو العقلانية والدين فيه وكأنهما قد سلكا طريقين متناقضين.

بالطبع لقد تغيرت كنيسة الروم الكاثوليك بشكل كبير جداً في الفترة الحديثة ويشار إلى اعترافها بالأخطاء التي ارتكبت في الماضي بإسمها. وعلى المسلمين اليوم تعلم الكثير من هذه التجربة. يمكن أن تنبه قصة صعود التراث العلماني في الغرب المسلمين من الأخطار الكامنة في المحاولات المتعددة لإعادة إحياء أو هيكلية الإسلام اليوم. رغم المعارضة الظاهرة 'للعلمانية الغربية' فإن العديد من حركات إعادة الإحياء تقع ضحية التوجهات 'العلمانية' أنفسهم، وهذا في مجالين هاميين. الأول، إن المحاولات التي تركز على علاقات القوى في الدولة نفسها، أو ببساطة التعبير الإجتماعي للدين في الحياة العامة، يمكن النظر لها على أنها ميول 'علمانية' تفقد المحتوى الروحي للدين نحو بيئة غريبة من الصراع السياسي. ثانياً، إن التهميش المتعمد أو الإنتقاص من الرمزية ذات الطابع الصوفي والبعد الروحي والذي غالباً ما يترافق مع استخدام الدين كسلاح سياسي، هو كذلك شكل من العلمنة، مشكلاً صورة مقابلة للخصائص الرئيسية للعملية التي استسلم من خلالها الغرب لحالة الإستقطاب بين الإيمان والعقل.

التحدي المواجه للمسلمين

بعبارة أخرى، إن التحدي الذي يواجه المسلمين الذين يسعون لإعادة إحياء عقيدتهم اليوم، هو النظر إلى أعماق أوجه الدين من خلال أسمى درجات العقل. عكس ذلك هو التركيز على أكثر أوجه الدين سطحية من خلال أكثر جزء من العقل بدائية الأمر الذي يترجم إلى التركيز على الأشكال الظاهرية للدين من قبل الملكة العقلية مدعومة بالمشاعر المتهيجة إن لم تكن الثائرة. من الناحية الأخرى، هنالك توافق بين الأوجه الباطنية للدين وبين أكثر الأوجه جوهرية للعقل، وهو الحدس الروحي القادر على إدراك أقصى الوقائع، وإعادة تشكيل هذا العالم وفقاً لهذه الوقائع، بمعرفة واضحة لا شك فيها بأنه لن ينجح أي إصلاح إجتماعي خارجي من دون إصلاح روحي وأخلاقي للنفوس كلها، ابتداء من أنفسنا نحن.

'لايغَيِّرُ الله مايقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم'
(القرآن الكريم، السورة ١٣، الآية ١١).

